(آيات السكينة) في القرآن الكريم
(دراسة أسلوبية)

د.محمد الورد علي سعيد الورد*

الملخص باللغة العربية

يكشف البحث عن امكانيات القراءة المعاصرة للبنى الأسلوبية الموسيقية، واللفظية، والتركيبية (لآيات السكينة) في القرآن الكريم؛ لبيان الدلالة منها، والوقوف على بيان القرآن الكريم المعجز

وقد خلص البحث إلى أن الحضور الأبرز في سياق آيات السكينة لحروف كلمة (السكينة)؛ إذ نلحظ حضور الألف(٨٨) مرة، يليه حرف اللام (٦٦) مرة، وحرف السين(١١)، والكاف(٢٩) مرة، وحرف الياء(٣٩) مرة، ثم حرف النون(٦٩) مرة، وحرف الهاء(٣٩)، وهذا الحضور يتناسب مع السكينة، وجوها المفعم بالهدوء، والاطمئنان المليئة به، وما فيها من رحمات تتنزل على الرسول (صلوات ربي وسلامه عليه)، وعلى المؤمنين، كما أن للأسماء الحضور الأبرز في الآيات؛ إذ بلغ ذكرها(٨٥) مرة يليها الحروف إذ ذكرت(٨٠) مرة، ثم الأفعال(٣٢) مرة، وكل هذا التوظيف، والحضور لمقاصد بينها البحث.

كما ذكر الإدغام والإخفاء فيها (٨) مرات لكل منهما، وذكر الإظهار فيها (٤) مرات؛ انسجاما مع السكينة، وليتفق الصوت التجويدي مع معناه في الآيات، واستخدم البيان القرآني أساليب بيانية (كالاستعارة، والتكرار، والعدول، والتقديم والـخير، وأسلوب القصر، والمقابلة، والتفصيل بعد الاستيفاء)؛ لإيصال المعنى المراد للمتلقي.

* أستاذ مساعد – كلية التربية والعلوم التقنية والتطبيقية (باجل)، جامعة الحديدة.

أولاـ المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد، وعلى آله، وأصحابه

وبعد،،،

إن القرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي تحدى به أرباب الفصاحة والبيان، والذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وقد أبهر إعجازه البياني الدارسين وأهل البحث والعلم، وكان لي فيه ـ منذ بحثي الأول في (الماجستير) ـ حظ في تدبر آياته، وقراءة مضامينها لموضوعاته وأساليبه، وكشف أسرار بيانها، ومعززاً بالدكتوراه إمكاناتي البحثية فيه، وقدراتي التحليلية والمنهجية، وإنني أقدم هذه الدراسة التي عنوانها: (آيات السكينة في القرآن الكريم " دراسة أسلوبية")؛ لتحليل مستوى الأداء لصوتي، واللفظي، والجانب التركيبي؛ لبيان دقة القرآن في اختياراته، وإعجازه، وبيانه لمقاصد آيات السكينة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الآتي:

أولاًـ تحليل العناصر اللغوية التي تكوّن (آيات السكينة) في القرآن الكريم، وتحديد علاقة أدائها اللغوي ببيانها المعنوي.

ثانياـ الكشف عن الذي يميز الأداء الصوتي، واللفظي، والتركيبي في (آيات السكينة)، وأثره على المتلقي.

منهج البحث:

سيعمد البحثُ إلى دراسة الآيات دراسة أسلوبية، مستخدماً الإجراء الإحصائي، والحصر العددي لعناصر تكوين الآيات ثم توصيف أحوالها، ومستفيدا من الإحالات العلمية لبعض العلماء، والبلاغيين، والأسلوبية هي منهج وصفي تهتم في دراستها بتحليل الجمالية للغة، وبيان فاعليتها في المستويات الثلاثة (المستوى الصوتي، والمستوى اللفظي، والمستوى للتركيبي).

موضوع البحث:

سيتتبع البحث دراسة الآيات التي وردت فيها لفظة (السكينة) في القرآن الكريم كله، وعددها (ست) آيات، وهي:

الآية الأولى: **(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)**[البقرة : ٢٤٨].

الآية الثانية: **(ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ** [التوبة : ٢٦].

الآية الثالثة : **(إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** [التوبة : ٤٠].

الآية الرابعة: **(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)** [الفتح : ٤].

الآية الخامسة: **(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)** [الفتح : ١٨].

الآية السادسة: **(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)** [الفتح : ٢٦].

ثانيا- التحليل:

أولا- الفكرة الموجهة:

إن الفكرة الموجهة لآيات السكينة هي: بيان نزول السكينة، وأنها من الله (سبحانه وتعالى) ، وبيان من نزلت عليهم، وأحوالهم وقت نزولها، والامتنان

بها على عباده (رسول الله محمد (صلوات ربي وسلامه عليه)، وأتباعه المؤمنين، المؤمنين من بني إسرائيل).

ثانياً- مستويات التحليل:

أولا: المستوى الصوتي:

سوف يتتبع البحث الأصوات للحروف في الآيات المذكورة؛ لأن والصوت له أهمية كبيرة في الدراسات الأسلوبية، والصوت لغة من (صات ـ يصوتُ)، وصوت أيضاً(تصويتاً)، و(الصائت) الصائح[١]، والصوت عند ابن جني "هو أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[٢].

الحصر العددي لأصوات الحروف في آيات السكينة، كالآتي:

م	صوت الحرف	صفته	تكراره
١-	الألف	مجهور، رخو احتكاكي، (مستفل)، منفتح	٨٨
٢-	الباء	مجهور، شدة(انفجاري)، قلقلة، مستفل، منفتح	١٢
٣-	التاء	مهموس، شدة، مستفلة، منفتح	٢٢
٤-	الثاء	مهموس، رخو، مستفل، منفتح	٣
٥-	ج	مجهور، شديد، مستفل، منفتح،	٨

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، ط١٩٨٠،١م.

(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج١، تح: محمد علي االنجار، المكتبة العلمية، د. ط ، د. ت، ص٣٣.

٦-	ح	مهموس، رخوة، مستعلي، منفتح	٩
٧-	خ	مهموس، رخو، مستعلي، منفتح	١
٨-	د	مجهور، شدة، مستفل، منفتح، قلقلة	٥
٩-	ذ	مجهور، رخو، مستفل، منفتح	٦
١٠-	ر	مجهور، بينية، مستفل، منفتح، تكرير	١٦
١١-	ز	مجهور، رخو، مستفل، منفتح، صفير	١١
١٢-	س	مهموس، رخو، مستفل، منفتح، صفير	١١
١٣-	ش	مهموس، رخو، مستفل، منفتح، متفشي	٢
١٤-	ص	مهموس، رخو، مستفل، مطبق، صفير	٣
١٥-	ض	مجهور، رخو، مستعلي، إطباق، مستطيل	١
١٦-	ع	مجهور، بيني، مستفل، منفتح	١٣
١٧-	غ	مجهور، رخو، مستعلي، منفتح، مفخم	١
١٨-	ق	مجهور، شدة، استعلاء، منفتح، قلقلة	١٠
١٩-	ف	مهموس، رخو، مستفل، منفتح	١١
٢٠-	ك	مهموس، شدة، مستفل، منفتحة	٢٩
٢١-	ل	مجهور، بيني، مستفل، منفتح، منحرف	٦٦
٢٢-	م	مجهور، بيني، مستفل، منفتح، غنة	٣٧

٢٣-	ن	مجهور، بيني، مستفل، منفتح، غنة	٦٩
٢٤-	ه	مهموس، رخو، مستفل، منفتح	٣٩
٢٥-	و	مجهور، رخو، لين، مستفل، منفتح	٣٩
٢٦-	ي	مجهور، رخو، لين، مستفل، منفتح	٣٩

من هذا الحصر الكمي لحروف الآيات وصفاتها نخرج بالنتائج الآتية:

الحضور الأبرز لحروف كلمة (السكينة)؛ إذ نلحظ حضور الألف(٨٨) مرة، يليه حرف اللام (٦٦) مرة، وحرف السين(١١)، والكاف(٢٩) مرة، وحرف الياء(٣٩) مرة، ثم حرف النون(٦٩) مرة، وحرف الهاء(٣٩)، وهذا الحضور يتناسب مع السكينة، وجوها المفعم بالهدوء، والاطمئنان والرضا الإلهي، وما فيها من رحمات تنزلت على الرسول (صلوات ربي وسلامه عليه)، وعلى المؤمنين .

والحروف الأقل حضورا، هي حروف (الضاد، الشين، الصاد، الغين)؛ وهذه الحروف حروف (استعلاء)، وذات مخارج قوية ضخمة تشعر الإنسان حال النطق بها إلى تعب، وتحتاج لقوة في النطق بها، ولهذا كان لها حضور قليل؛ لأنها لا تتناسب مع جو السكينة والطمأنينة الذي تتحدث عنه الآيات.

كما نلحظ الانسجام بين الصوت التجويدي، والمعنى في آيات السكينة، كالآتي:

الصوت التجويدي	عدد مرات حضوره
الإظهار	٤
الإدغام	٨

الإخفاء	٨
الإقلاب	لا يوجد

من جدول الحصر الكمي لحضور الأصوات التجويدية نجد الآتي:

أن الحضور الأبرز لصوت الإدغام، والإخفاء؛ إذ بلغت عدد مرات حضورهما(٨) مرات، فجاء الإدغام في سياق الآيات في بيان أن السكينة نزلت بأمر الله، فهو ممزوج بها، وهي من عنده نزلت، وعنايته وحكمته ممتزجتان فيها، كما هو ـ أيضاـ في سياق إنزال الجنود، وفي بيان زيادة الإيمان، وامتزاجه بإيمانهم السابق.

والإدغام في اللغة: الخلط والمزج، وفي الاصطلاح: تقريب صوت من صوت[1] يعني: إدخال حرف ساكن في حرف متحرك بحيث يصيران كحرف واحد، وحروفه مجموعة في (يرملون)، وهو أحد مظاهر الإيقاع في الآيات الكريمة، وتناسب الصوت التجويدي مع معناه في آيات السكينة، ومنها قوله (تعالى): (**فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**)، التقى التنوين مع (الميم)، والنون الساكنة مع (الراء)، و(الميم، والراء) من حروف الإدغام، فتكون الإدغام الصوتي، والإدغام في المعنى؛ أن السكينة جاءت من الله سبحانه و(وتعالى)، وأنها ممزوجة بقدرته وأمره، وأنه من أنزلها على رسوله، وعلى والمؤمنين، وفي قوله (تعالى): (**لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ**) التقى التنوين مع حرف الميم؛ فتكون الإدغام الصوتي الذي أيضا كون الإدغام في المعنى؛ كون زيادة الإيمان اختلطت وامتزجت مع إيمانهم السابق في قلوبهم.

والإخفاء الذي هو الستر في اللغة تقول: أخفيت الشيء أي: سترته، وفي الاصطلاح: إن إخفاء النون الساكنة أو التنوين إذا أتت بعدهما حروف

(١) ابن جني، الخصائص، ج٢ ، ص١٣٩.

الإخفاء[١]، وجاء صوت الإخفاء متناسبا مع معناه في الآيات، **ومحققا له، كما في قوله (تعالى)**: **(فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)**، التقت النون الساكنة مع حرف (الزاي)، وهو من حروف الإخفاء، فتكون الإخفاء الصوتي، والإخفاء في المعنى يأتي من أن كيفية إنزال الله لسكينته على رسوله (صلى الله عليه وسلم) مجهولة، ومخفية، ولا نعلم كيف تم الإنزال، ولا هيئته، وفي قوله(تعالى): **(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)؛ التقت النون الساكنة مع حرف (الكاف)، والكاف من حروف الإخفاء؛ فتكون الإخفاء الصوتي الذي ينسجم مع الإخفاء في المعنى؛ كون الإيمان محله القلب، وهو تصديق فيه، وإيمان مخفي لا يرى، وإنما تظهر آثاره على الجوارح بعده، وهذا التوافق والانسجام في الآيات القرآنية يوثق، ويعمق إعجازه الرباني.**

وجاء الإظهار في المرتبة الثانية؛ إذ بلغ عدد مرات حضوره (٤)، ونلحظ أن وجوده في سياق إظهار قدرة الله، وبيان علمه، وحكمته، وإحاطته بكل ما يجري من أحداث. والإظهار في اللغة البيان، واصطلاحا هو إخراج كل حرف من مخرجه من غير غنة في الحرف المظهر، حروف الإظهار الحلقي ستة حروف، هي حروف الحلق الستة: (الهمز، الهاء، العين، الحاء، الغين، والخاء)، وجاء المعنى منسجماً مع الصوت المظهر، كما في قوله (تعالى): **(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا)**؛ التقت النون الساكنة مع الهمز الذي هو حرف من حروف الإظهار، فكونا الإظهار الصوتي المتناسب مع الإظهار في المعنى، الذي هو معية الله سبحانه و(تعالى) معهما الظاهرة بالنصرة والتأييد لهما، وأن القدة الإلهية، وإن كانت خافية في كيفية فعلها إلا أن آثارها في حفظهم، والعناية بهم كانت آثارها ظاهرة، فلم ينكشف أمرهم .

وفي (**وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)**، **التقى التنوين مع حرف (الحاء)، وهو من حروف الإظهار؛ فتكون الصوت المظهر، والمعنى المظهر هو: أن علم الله،**

(١) ينظر: حمدي بخيت عمران، المفيد في علم التجويد، الأكاديمية الحديثة لكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥٢.

وحكمته ظاهرة، ومشاهدة في مخلوقاته، يقول القرطبي: "عليما بأحوال خلقه" حَكِيماً فيما يريده" [١].

ولم يأت الإقلاب في آيات (السكينة)؛ لأسباب ـ من وجهة نظري ـ وهي: إن الإقلاب تحوّل، وقلبّ، وتغير، ومن نزلت عليهم السكينة في الآيات(الرسول، والمؤمنون) لم يتحولوا من عدم السكينة إلى السكينة؛ لأنها أصلا عندهم، فهي موجودة مسبقاً في قلوبهم، وإنما زادهم الله سكينة إلى سكينتهم؛ تثبيتاً لهم، وشدا لأزرهم في مواقفهم المختلفة.

وتنوع صوت الفاصلة القرآنية في الآيات تنوعاً ملحوظاً، ومن المعلوم أن صوت الفاصلة القرآنية ملمحٌ من ملامح إعجازه الفريد، وهي ملمح موسيقي في الآيات ذات جرس يأخذ بالقلوب إلى مبتغاها، إضافة إلى أنها تحقق معنى السياق وتعمقه؛ فهي تتناسب من حيث الصوت والمعنى؛ ليؤديا معا ما يريدان أن يعمقانه في نفس المتلقي، يقول الدكتور أحمد أبو زيد: " ولا يجوز القول أنّ القرآن يختار الكلمة أو الأسلوب أو العبارة لتناسب الفواصل فقط، ولكن الأليق أن يقال: أنه يختار ما يختار من ذلك؛ لأنه الأبلغ في موضعه، والأوفق في نسقه"[٢].

وقد جاءت الثلاث الآيات الأولى بصوتي (الياء والنون، والياء والميم)(المؤمنين، الكافرين، حكيم)؛ لما لهم من وقعٍ جميلٍ على السمع، فتثير هذه الحروف فينا الشعور بالمتعة، والإحساس بالجمال الصوتي؛ لأنهما من الحروف الطبيعية للموسيقى [٣]، وهي أكثر الحروف إثارة نطقية؛ للتنبيه، وللاستجابة لما يعرضه الله (عز وجل) في محكم تنزيله.

---

(١) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن،ج١٦، تح: أحمد البردوني، إبراهيم طفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٣م، ص٢٦٤.

(٢) ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٢م، ص٣٦٩.

(٣) ينظر: ميسة، محمد الصغير، جماليات الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١١. ٢٠١٢، ص٦٦.

" ولما كان الهدف من النطق هو توصيل رسالة لغوية، وتبليغها إلى المخاطب، فإن أنسب ما يستخدم في هذا التبليغ هو الأصوات المنطلقة، أي: الحركات، وهي أقوى الأصوات إسماعا، تليها الأصوات المتوسطة"، وهذا الاتجاه في استخدام الأصوات الرنانة شائعا في أسلوب القرآن كله، كما هو متحقق في فواصله، ومن ثم توفر فيه القدر الكبير من الموسيقى [١]، ولما في صوتيهما من امتداد لمعنى الإيمان، وامتداد للعذاب والجزاء (في الآية الثانية) للكافرين، وامتداد حكمة الله سبحانه و(تعالى) واتساعها في كونه، ومخلوقاته، وقوة حكمته ومناسبتها لكل ما في الكون.

وجاءت الفاصلة في الآيات الثلاث الأخريات بصوت (الميم والألف، والباء والألف، والميم والألف)(حكيما، قريبا، عليما) ـ أيضا ـ؛ لبيان شمول واتساع حكمة الله سبحانه و(تعالى)، وإطلاقها في مخلوقاته على اتساع ملكه وحكمته وعلمه، كما وصف الفتح بأنه قريب، وذلك لقرب زمانه، إذ كان على أيام من صلح الحديبية، ثم لقرب تناوله، إذ لم يلق المسلمون من أهل خيبر بلاء كثيرا، بل سرعان ما استسلم يهود خيبر ليد النبيّ، ونزلوا على حكمه[٢].

ثانيا ـ في المستوى الإفرادي:

سيقوم البحث بإحصاء كمي لصيغ (الاسم، الفعل، الحرف) الواردة في الآيات، كما سيقوم باختيار أهم الألفاظ الواردة في سياق الآيات، ويبين علاقة اللفظة بمعناها في السياق الذي وجدت فيه كالآتي:

صيغ الزمن	عدد وروده
الاسم	٨٥
الفعل	٣٢

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، ج١٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٤١٧.

الحرف	٨٠

ومن الجدول أعلاه نجد أن النسبة الكبيرة لحضور الاسم، فقد كان عدد مرات حضوره(٨٥)؛ ذلك أنه يدل على الديمومة والثبوت، كما يدل على أن سكينة الله سنة ثابتة لمن كان هذا حالهم، والتزموا بمقدماتها من طاعة الله(سبحانه وتعالى)، وطاعة رسوله(صلى الله عليه وسلم)، وقد كان لحضور لفظ الجلالة وصفاته دور بارز؛ إذ بلغت عدد مرات حضوره (١٠) مرة في الآيات؛ ليؤكد أن السكينة أصلها منه، وأنه الباعث لها في قلوب من يؤمن به، ولذلك ورد في الآيات من يستحق نزولها عليه من الرسول والمؤمنين (٦) مرات؛ ليبين أن هذا الصنف من الناس هم الأجدر بنزولها عليهم؛ لتحقق صفة الإرسال في رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، وتحقق صفة التابعية، والإيمان في صفوف المؤمنين؛ ولهذا كان ورودهم أيضا في سياق المدح في الآيات

وأما ذكر الكافرين، فقد ورد بصيغة (الكافرين) مرة واحدة في معرض الجزاء والعقاب، وورد ذكرهم أيضا بصفتهم، وما يحملونه في قلوبهم من حمية الجاهلية بصيغة ذمهم واحتقارهم لما يحملونه من عداوة، وكره للإسلام والمسلمين، وذكرت الملائكة في معرض طاعة الله وتنفيذها لأمره من حملها للتابوت، وذكر الأنبياء في مقام ما تركوا من تركة من بعدهم فيها قيم، وتعاليم التوراة تكمن فيها السكينة والطمأنينة لمن قام بمن فيها، وعمل بمقتضاه، وذكر جنود الله في الآيات؛ لبيان القدرة المطلقة لله (سبحانه وتعالى)، وأن له مطلق التصرف في خلقه، وينصر من يريد بما يريد من خلقه، وبيان الطاعة له، والامتثال لأوامره من جنوده التي لا تغلب.

كذلك ورد لفظ السكينة في الآيات بألفاظها المتعددة(٦) مرات، ليبين لنا السياق القرآني أنها سكينة ثابتة نزلت في مواطنها المذكورة، وتنزل لمن تحققت فيه شروط العبودية لله، ونلحظ في الآيات أنها تنزل في وقت اشتداد الأمر، وتحقق صعب الواقع والمراد، فإذا بها تكون نصراً نفسانياً للمؤمنين في أشد مواقفهم ضراوة عليهم، لتكون لهم ثباتاً تقوى به نفوسهم، ويشتد بها أزرهم.

وجاءت الحروف في المرتبة الثانية، فقد ذكرت (٨٠) مرة، وقد تنوعت في حضورها بين حروف (العطف، الجر، والتوكيد، والجزم، وهاء الضمير)، وكان لحضور حروف العطف النسبة الكبيرة؛ إذ بلغ عدد وجودها (٢٦) مرة، وتنوعت بين حروف (الواو، والفاء، وثم)، فكان لحضور الواو(١٩)، لكونه يفيد مطلق الجمع[١]، ويدل على توالي الأحداث في زمن معين واحد، وجاءت في (آيات السكينة) بهذه الدلالة، فجاءت في الإخبار عن الذي في التابوت، فعطف بقية تركة (آل موسى وآل إبراهيم) على السكينة، وكذلك في عطف المؤمنين على رسوله في بيان من نزلت عليهم السكينة، وفي توالي الأحداث من إنزال الجنود، وعذاب الكافرين.

وحضور الفاء(٥) مرات، وتفيد الترتيب والتعقيب[٢]، وجاءت في المواضع التي تفيد العطف مع الترتيب والتعقيب مباشرة، فجاءت في إنزال السكينة على المؤمنين مباشرة، وإنزالها كذلك بعد مبايعة رسول الله تحت الشجرة، وحضور حرف العطف(ثم) مرة واحدة، وهي تدل على العطف مع التراخي الزمني[٣]،؛ لأن إنزال السكينة كانت بعد أن تولوا مدبرين؛ فبين توليتهم، وبين إنزال السكينة تراخٍ زمني؛ ولذلك كان التعبير بها أنسب يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب: " تفيد ثم الترتيب الزمنى في وقوع هذه الأحداث .. فقد وقع المسلمون أولا فى اضطراب وذعر، والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء، ولم يكن ذلك بالميسور لهم .. ثم كان الفرار وتولية الأدبار هما طريق النجاة .. ثم جاءت السكينة ونزلت عليهم وانقلبت الهزيمة إلى نصر"[٤٣].

وكذلك نجد حضور حرف الجر(عن، على، الباء، واللام، في، والكاف)(٢٢) مرة، وهذه الحروف في آيات السكينة جاءت لدلالتها المناسبة

---

(١) المرادي، ابن أم قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، ج١، تح: د فخر الدين قيادة، ومحمد نديم فاضل، حلب، ط١، ١٩٧٣م، ص٢٦.

(١) ينظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، ج١، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، د. ت، ص٢١٨.

(٢) ينظر: المرادي، ابن أم قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، ص٧٢.

(٤) الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، ج٥،ص٧٢٨.

المعروفة لها، فمثلا الحرف(عن) يفيد التجاوز في اللغة عند أهل النحو، وجاءت في قوله (تعالى): (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ پ؛ لتفيد هذا المعنى، وهو تجاوز الله عن المؤمنين، فتناسبا التجاوز اللفظي والمعنوي، وكان هو الاختيار المناسب، وكذلك الحرف(على) تفيد الاستعلاء الحقيقي أو المجازي، ووردت في الآيات تفيد هذا المعنى، كقوله (تعالى) (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)؛ فتناسب اللفظ اللغوي والمعنى القرآني.

ونجد كذلك حرف (الباء) من معانيها: الملازمة، والمصاحبة، والاستعانة، وقد جاءت في قوله (تعالى): چ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) مناسبة لهذا المعنى اللغوي، وجات (الفاء) الظرفية، وهي حرف خافض، وهو للوعاء والظرف، وما قدر تقدير الوعاء[1] في قوله (تعالى) (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ)، وفي قوله: (يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)، وكلها تفيد معنى الظرفية الواقعية التي تتفق مع الظرفية اللغوية في سياقها القرآني.

وحضور الأفعال في الآيات هو الأقل؛ إذ بلغ حضورها(٣٢) مرة، وأن الفعل الماضي له حضور أكبر من الفعل المضارع إذ بلغت نسبة حضوره (٢٤) بينما حضور المضارع (٨)؛ وذلك أن سياق آيات السكينة يخبرنا عن مواقف نزلت فيها السكينة في الماضي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وعلى المؤمنين).

وأما الفعل المضارع ـ المذكور في الآيات ـ والذي كان له حضور أقل في الآيات؛ إنما جاء ليبين، ويصور لنا زمن الحادثة ويضعهما أمامنا، بزمانها المتجدد حين نزلت مخاطبا بها رسوله وأصحابه (تنصروه، يبايعونك)، أو يصور لنا زمن ما قيل على لسان نبي بني إسرائيل من دلالة على الإتيان بالتابوت (تحمله الملائكة).

---

(1) ينظر: ابن هشام، أبو محمد عبدالله جمال الدين، مغني اللبيب، ج١، تح: محي الدين عبد الحميد، د، ت، د ط، ص١٦٨.

لفظ (السكينة)

هو اللفظ البارز في سياق الآيات، ومحور اهتمامها وتركيزها، والسكينة: هي الطمأنينة[١]، وثبات النفس والاستقرار والوقار والرزانة[٢]، وفي (التعريفات) هي ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده ويطمئن، وهو مبادي عين اليقين[٣]، وهي هيئة نفسانية تدل على مفارقة الاضطراب عند الغضب والخوف، وأكثر ما جاءت في الخوف[٤]، وجاءت هذه الكلمة في سياقها في الآيات تؤيد معنى السكون، والطمأنينة، والهدوء النفسي وغياب الاضطراب والخوف، وقد ورد لفظ السكينة في الآيات (الست) في سياقاتها المتعددة في هذا المعنى بطرق ثلاث، فجاءت نكرة، ومضاف إلى (الهاء) الضمير العائد على الله، وجاءت معرفة بالألف واللام، كالآتي: (سكينة، سكينته، السكينة) فما الفرق بينهم؟

وردت لفظة "سكينة" بالنكرة في آية (بني إسرائيل) في قوله (تعالى): **(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)** [البقرة : ٢٤٨]، ثم ذكرت (سكينته) منسوبة لله (عز وجل) في مواضع في قوله (تعالى): **(ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ)** [التوبة: ٢٦]، وفي قوله (تعالى): **(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا)** [التوبة : ٤٠]، وفي قوله (تعالى): **(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ**

---

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون، القاموس المحيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط١، د. ت،(سكن).

(٢) ينظر، ابن فارس، أحمد بن الحسين، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ط١ ، ١٩٧٩ والجوهري، الصحاح(سكن).

(٣) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٥٩.

(٤) ينظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، الفروق اللغوية. تح: ممد إبراهيم سليم، دار العلم للثقافة وانشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٨٠.

الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) [الفتح : ٢٦].

وجاءت معرفة بالألف واللام في قوله (تعالى): **(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ)** [الفتح : ٤]، وفي قوله (تعالى): **(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)** [الفتح : ١٨]

يقول السامرائي: "الملاحظ في السكينة في السياق القرآني أنه حيث ذكر الرسول(صلى اله عليه وسلم) أو كان موجودا في السياق يقول: (سكينته) بالإضافة إليه، وهي خصوصية للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وتعظيما له وإكراما، وحيث كان الأمر عاما ليس فيه ذكر الرسول(صلى الله عليه وسلم) يأتي السياق بلفظ(السكينة) [١].

ومعظم علماء التفسير والإعجاز يقولون: كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في سورة البقرة آية (٢٨٤)؛ إذ يرون أنها هيئة فيه وذات، وبتصوري أن السكينة اسم معنوي في أصلها اللغوي؛ فتكون حقيقتها اللغوية في أنها كل ما يؤدي لاستشعار القرب الإلهي، إضافة إلى وجود الاطمئنان النفسي، والاستقرار الاجتماعي، والأمان العسكري، والتحولات الإيجابية...، وقد تأتي في معناها مجازي لاعتبارات أخرى، وأعتقد أنها في سياقها القرآني هذا في معناها الأصلي، وأن القرينة السياقية، (فيه سكينة) لا يقصد فيه بالضرورة توفر شيء مادي محسوس اسمه(سكينة)، وإنما الغرض من ذلك والهدف هو أن يجعل الناس تلتف حول رمزية معينة، للقبول بقيادة (طالوت)، وإشعارهم ـ كذلك ـ أن النصر، والغلبة لهم إن هم توحدوا تحت إمرته.

وفي القرآن كثير من هذه الآيات المؤيدة للقول، كقوله (تعالى) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)، فالتوراة تعاليم نزلت في كيان مادي(ألواح

([١]) ينظر: السامرائي، فاضل صالح، لمسات بيانية، الحلقة١٢٢، ينظر: موقع الهدى، لمسات بيانية في سورة الفتح، ج١، الخميس، أكتوبر، ٢٠٠٩م، المكتبة الشاملة، ص٢٤.

وصحف)، لكن الهدى والنور الموجود فيها ليس شيئا ماديا أو دالا على ذات، بل هو معنى بعيد عن هذا كل البعد، وألصق بمعناها الحقيقي الذهني والتخيلي الذي نعرفه من ظهور آثاره وانعكاساته علينا، وعلى من حولنا .

ثالثاً: المستوى التركيبي:

سنبين هنا ما يتعلق بأبرز أساليب التركيب في سياق آيات السكينة، كالآتي:

الأسلوب	الاستعارة	أسلوب الشرط	العدول	القصر	التفصيل بعد الاستيفاء	المقابلة	التكرار	النهي
عدد مرات وروده	١	١	٤	١	١	١	٥	١

نلحظ من الجدول السابق ورود الأساليب كالآتي:

الاستعارة في قوله (تعالى): (يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) ؛ كون التابوت يؤتى به، ولا يأتي هو، فجعل السياق التابوت يأتي أي: فاعل، وهو في الأصل مفعول به، كما ذكر التابوت معرفا (بالألف واللام)، ولم يقل (تابوت)؛ ليبين لنا أن التابوت معروفا لديهم، يقول الشعراوي: " وهذا القول: نستدل منه على أن التابوت كان غائباً، ومفقوداً، وأنه أمر معروف لديهم، وهناك تلهف منهم على مجيئه"[١]، وإضافة السكينة إلى الله (سبحانه وتعالى) في قوله (تعالى): (سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) بين أن هذه السكينة من عند الله سبحانه و(تعالى)، فهي سكينة عظيمة مادام أنها من الله؛ لأن العظيم لا يأتي منه إلا الشيء العظيم، يقول ابن عاشور: " كما أن تعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سكينة خارقة للعادة ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما

(١) الشعراوي، محمد متولي، خواطر الشعراوي، مطابع دار أخبار اليوم، د. ط، ١٩١١م، ص٦٦٢.

حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه آنفا؛ كرامة لنبيه (صلى الله عليه وسلم)، وإجابة لندائه الناس، ولذلك قدم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين [١]..

ونلحظ تكرارها في الآيات الست، وكل سياقات تكرارها تشع فيه هذه السكينة والطمأنينة على الرسول(صلوات ربي وسلامه عليه)، وعلى المؤمنين، كما نلحظ إعادة حرف الجر(على) بعد حرف العطف (الواو) في قوله (تعالى): (ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)؛ " تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني؛ للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول (عليه الصلاة والسلام) سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف" [٢].

ونجد في قوله (تعالى): (تحمله الملائكة) إشارة إلى أنه شيء كبير ومهم، ونتيجة لهذه الأهمية ستحمله الملائكة؛ لحفظه وحراسته، وفيه أيضا إثبات وبيان لهم وتأكيد على أنه من عند الله سبحانه و(تعالى)، فيصدقوه ويستجيبون له .

وأسلوب الشرط في قوله (تعالى) (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ) المتحقق من (إن الشرطية + لا النافية) أدغمتا في (إلا) يقول الدكتور محمد توفيق: " و(إن) هي أهم أدوات الشرط، والإتيان بها فيه حث على العمل لنصرة رسوله(صلوات ربي وسلامه عليه)، كما أن الاتيان ب(لا) النافية دون لم أو لن يظهر لي فيه أمران: أولهما: استحضر الشرط في كل زمان يقع فيه النفي أي أن هذا الحكم المترتب على تحقق عدم نصركم له ليس خاصا بهذه الواقعة غزوة العسرة بل هو ممتد (فالألف) في " لا " تشعر بهذا الامتداد، وفي هذا إيناس عظيم لرسول الله (صلوات ربي وسلامه عليه) وثانيهما: الإيحاء بعدم الجزم بأن عدم النصر واقع منهم، فلا يفهم أحد أن ذلك الترك مقطوع بوقوعه منهم فيتعلل بالقدر، فاجتمع الإغراء بالإقدام على المناصرة من رافدين (إن) من دون (إذ) و(لا) من دون (لن أو لم)، وعبر بالضمير عن رسول الله (الهاء) في

---

(١) ابن عاشور، محمد بن الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير،ج١٠، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م ص٦٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٦٠.

(تنصروه)، ولم يذكره باسمه؛ لأنه مستحضرا في قلب المخاطب أو يجب أن يكون مستحضرا.

وجواب الشرط محذوف تقديره: (إلا تنصروه فسينصره الله)، وأقيم بدل الجواب المحذوف قوله: " فقد نصره الله"، وهذا من بديع الإعجاز؛ وإن كان جملة سينصره الله فيها من تحقق نصر الله؛ كون (السين) تقوم مقام(قد) إلا أن التعبير (فقد نصره الله) فيه دلالة كمال تحقق نصر الله؛ لأن فيه جمع من الدلائل على ذلك (قد، والفعل الماضي، وإسناد الفعل إليه) (سبحانه)، و(فقد نصره الله) يفهم منه أنهم حين لا ينصروه سيكون الناصر له هو الله، وهم يعلمون كيف نصرالله المدهش، والمعجز بعد (إذ أخرجه الذين كفروا)، وفيه إيناس لرسول الله(صلوات ربي وسلامه عليه) أن لا ينتظر نصرة من أحد؛ لأن ناصره هو الذي أرسله رب العالمين[١].

والعدول في قوله (تعالى): (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا) ؛ إذ إن كلمة الذين كفروا منصوبة، وهي (كلمة الشرك)، فدخل عليها الفعل (جعل) بعكس كلمة الله لم يدخل عليها الفعل، بل جاءت جملة اسمية؛ " لأن الجملة الإسمية تدل على الدوام والثبوت، وإن الجعل لم يتطرق لها؛ لأنها في نفسها عالية لا يتبدل شأنها، ولا يتغير حالها، وفي إضافة الكلمة إلى الله إعلاء لمكانها، وتنويه لشأنها" [٢]، " وإذا كانت الكلمة تعبيرا عن إرادة المتكلم بها، وتصويرا لمشيئته التي يريد إمضاءها، فإن إنفاذ هذه الإرادة، وإمضاء تلك المشيئة، إنما يكون بحسب ما عند المتكلم من رصيد من القوى التي يحشدها وراء كلمته؛ ليقيم لها مكانا فى عالم الواقع المحقق .. وإنه حين تبطل الكلمة، ولا تجد لها مكانا فى الواقع المحقق، يكون ذلك دليلا قائما على ضعف صاحبها وسقوط همته .. وأن كلماته التي ينطق بها ليست إلا أصواتا ضائعة فى الهواء!.

وفى التعبير عن كلمة اللّه بالعلوّ، إشارة إلى أن كلمات اللّه سبحانه، هي في المكان المتمكن، الذي تستولى به على كل شيء، بحيث لا تقف لها قوة، ولا

---

(١) ينظر: محمد توفيق، شذرات الذهب (دراسة في البلاغة القرآنية) القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، ص٩٢، ٩٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١٠، ص٦٠.

يحول دونها حائل ..، وفي وضع ضمير الفصل (هي) بين المبتدأ والخبر في قوله (سبحانه): (وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا)؛ إشارة أخرى إلى كلمة الله، وإلى تحقيقها، وإفرادها بهذه المنزلة دون غيرها من الكلام البشرى على أي مستوى .. فهي وحدها هي العليا، المتفردة بهذا المقام المتمكن من العلوّ ..، ولهذا جاء بعدها الوصف المناسب لله سبحانه و(تعالى)، صاحب هذه الكلمة: (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، فهو العزيز الذي لا عزة لأحد مع عزّته، وهو الحكيم الذي ـ مع ماله من عزّة مطلقة، ومن سلطان لا ينازع ـ يضع الأمور مواضعها القائمة على ميزان الحكمة والعدل والإحسان"[١]

والعدول عن حرف الاستعلاء (على) إلى الظرفية (في) في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح:٤)، ففي كل آيات السكينة استخدم السياق القرآني حرف الجر والاستعلاء (على) (على رسوله، عليه، عليهم) إلا في هذه الآية، جاء السياق بحرف الجر (في) بدلا عن (على)، وهو في سياق الحديث عن الفتح بعد صلح الحديبية، وذلك بسبب ما وقع لهم من حيرة، ومن قلق واضطراب؛ بسبب الصلح الذي كانوا يرون فيه إجحاف لهم؛ فجاء التعبير بـ(في) الظرفية؛ ليؤكد استقرار السكينة في قلوبهم؛ إذ جعلها مأوى ومستودعا لها؛ ليبين تمكنها منهم، وشدة التصاقها بهم؛ كونهم في أشد الحاجة إليها بسبب موقفهم، وما أصابهم من القلق والاضطراب بسبب الصلح بينهم وبين المشركين، وفي روح المعاني: " والمراد بالسكينة الطمأنينة والثبات من السكون أي: أنزلها في قلوبهم بسبب الصلح والأمن؛ إظهارا لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والمراد بإنزالها خلقها وإيجادها[٢].

ونلحظ من السياق القرآني، أن السكينة حين تأتي مع حرف الجر(على) الدال على الاستعلاء تأتي؛ لبث شعور الاطمئنان والانشراح لمن قد استقر الإيمان في قلوبهم ونفوسهم، وتشبعت به أرواحهم، أما حين تأتي مع حرف الجر (في) الدال على الظرفية، فيبدو أنه يأتي؛ للتثبيت في موقف حدث فيه

---

(١) الخطيب، عبد الكريم، التفسير لقرآني للقرآن، ج٥، ص٧٧٦، ٧٧٧.

(٢) الألوسي، شهاب الدين محمود ابن عبدالله، روح المعاني، ج١٣، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٥هـ، ص٢٤٦

تزعزع وعدم تسليم مطلق لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ففيه شد الأزر لقلوبهم، ورفع درجة اليقين عندهم؛ حتى تسلم الفئة المؤمنة لقائدها التسليم المطلق، وفي هذا نجد أنه في التعبير بـ (في) لم يذكر النبي(صلوات ربي وسلامه عليه) مع المؤمنين، في السياق.

وحين يأتي السياق بالحرف (على) نجد أن فيه مقابلة أو جزاء؛ ليبين أنها سكينة مصحوبة بعلو ورفعة؛ ولذلك وردت في سياق حادثة الغار، وبعد ذكر حمية الجاهلية، وفي غزوة حنين، وجاء الفعل مسبوقا بـ(الفاء)؛ ليدل على أن الأمر مرتبط بما قبله، أما في السياق المعبر عنه بـ(في)، فالمقام مقام امتنان، واختصاص، ولم يسبق الفعل بالفاء، وغرض السكينة زيادة الإيمان، والقلب هو محله؛ فكان التعبير الأنسب بـ (الفاء) الظرفية.

وأيضا في كل تلك السياقات التي عبر عنها بـ(على) فيها وضوح ومفاصلة في المعركة لا توجد فيها أسئلة من قبيل هل يصلح أم لا، لكن في صلح الحديبية الذي جاء السياق معبرا عنه قدر من الارتباك والحرج الأول وجود قدر من الحرج في القتال عند المسجد الحرام، وفي مكة جملة، والثاني: أنهم وعدوا بدخول المسجد الحرام، فحسبوا أنه في مسيرهم ذاك، فلما كان الصلح بعد البيعة أصيبوا بقدر من الإحباط؛ فكانوا بحاجة إلى السكينة في قلوبهم من الله فكانت والله أعلم.

والعدول في قوله (تعالى): (ثانِيَ اثْنَيْنِ)، فلم يقل: (أول اثنين) أو (أحد اثنين)؛ وسر هذا العدول هو عظيم التكريم لصاحبه الصديق أبي بكر (رضي الله عنه)، وليس لأحد مثل هذا التكريم ويكفيه فخر له، وفيه إغراء للصحابة الكرام أن يكونوا معه ورفقاءه، فهو شرف لهم، كما أن التعبير به يشعرنا بقوة الله وقدرته؛ إذ إن نصره له لم يكن بكثرة عدد ولا جيش، وهو بيان للحال وإشارة إلى ذلك النصر المؤزر [١].

والعدول في قوله (تعالى) : (ثمَّ أَنزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) بعد قوله (تعالى): چ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم)، ذكرهم بلفظ

(١) ينظر: محمد توفيق، شذرات الذهب (دراسة في البلاغة القرآنية)، ص٩٦.

المخاطب أولا، وكان سياق الأسلوب أنزل الله سكينته عليكم، بيد أن في إنزال السكينة شيء من اللطف بهم، والتكريم لهم في ذكر الرسول والمؤمنين، فوصفهم بأوصاف التكريم، والتعظيم للسكينة على النبي الكريم، وصحابته شديدي الصلة بخالقهم أوثق ما تكون الصلة[١].

واختلف البلاغيون، والمفسرون في عود الضمير في قوله(تعالى): (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)، فمنهم من قال: إنه عائد إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقال: بأن (الفاء) للتفريع، كالإمام ابن عاشور، ومنهم من قال: بعوده إلى أبي بكر الصديق(رضي الله عنه)، وقال: إن الفاء تعقيبية، كالإمام الرازي، وأبي حيان،،

ونحن نرجح أن الضمير عائد إلى رسول (صلى الله عليه وسلم)؛: لأن الضمائر من أول الآية عائدة إليه (إِلاَّ تَنصُرُوهُ، فَقَدْ نَصَرَه، إِذْ أَخْرَجَهُ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ)، كما أن العطف بعده (في الآية) يؤكد ذلك في قوله (تعالى): (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ) ، والتأييد بالجنود خاصة بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، ونستطيع أن نقول: إنها سكينة مضافة إلى ما عنده(صلوات ربي وسلامه عليه) من سكينة من وثوقه بربه، واطمئنانه بنصره، وتأييده له، وأن الخطاب لرسول الله يشمل من معه (صاحبه)، فهو داخل في الخطاب؛ للزوم الصحبة والمرافقة.

يقول ابن عاشور: " التفريع مؤذن بأنّ السكينة أنزلت عقب الحُلول في الغار، وأنّها من النصر؛ إذ هي نصر نفساني، وإنّما كان التأييد بجنود لم يروها نصراً جثمانياً، وليس يلزم أن يكون نزول السكينة عقب قوله: (لا تحزن إن الله معنا)، بل إنّ قوله ذلك هو من آثار سكينة الله التي أنزلت عليه، وتلك السكينة هي مظهر من مظاهر نصر الله إيّاه، فيكون تقدير الكلام: فقد نصره الله فأنزل السكينة عليه وأيّده بجنود حين أخرجه الذين كفروا، وحِين كان في الغار، وحين قال لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا. فتلك الظروف الثلاثة متعلّقة بفعل " نصره " على الترتيب المتقدّم، وهي كالاعتراض بين المفرّع عنه والتفريع، وجاء نظم الكلام على هذا السبك البديع للمبادأة بالدلالة على أنّ النصر حصل في أزمان

(١) ينظر: د محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، دار التضامن للطباعة، ط١٩٨٠،٢م، ص١٩١، ١٩٢.

وأحوال ما كان النصر ليحصل في أمثالها لغيره لولا عناية الله به، وأنّ نصره كان معجزةً خارقاً للعادة[١].

وأسلوب القصر في قوله (تعالى): (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) تفيد حصر هذه الجنود، وملكيتها لله سبحانه و(تعالى) فقط، وأنه هو الواحد المتفرد بملكيتها، والتصرف فيها ينصر بها عباده الصالحين بأي منها متى شاء، وكيف شاء؛ ليبث روح الاطمئنان في نفوس المؤمنين، وليحفزهم لنصرة دينه؛ لأن في غيرهم يتم بهم النصر إن تقاعسوا، كما أن فيها تهديد و وعيد للمشركين.

وأسلوب التفصيل بعد الإجمال في قوله(تعالى): (الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)؛ إذ ذكرت الحمية بصيغة عامة ثم بينها أنها حمية الجاهلية، وفي زيادة التعريف بها، وتعيينها، وتبيينها يقول ابن عاشور: "عطف بيان للحمية قصد من إجماله ثم تفصيله تقرير مدلوله وتأكيده، وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية، فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن، كقوله: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [آل عمران: ١٥٤] ، وقوله: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ) [المائدة: ٥٠]

وأسلوب المقابلة في الآية السادسة في قوله (تعالى): (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، فقابل بين الآتي:

جعل	⟵	**أنزل**
الذين كفروا	⟵	**على رسوله وعلى المؤمنين**
حمية الجاهلية	⟵	**سكينته**

فجاء النظم القرآني في خطاب الكافرين بـ (جعل)، وفي خطاب المؤمنين بـ(أنزل)؛ لأن الإنزال تخييل للرفعة، ودلَّ الإنزال على بركة ما أُنْزِلَ، فإنَّ ما كان من أعلى من النعم الشأنُ فيه أنَّه الطَّيِّبُ الأكرمُ ، وكذلك أنت واجده في

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج١٠، ص١٠١.

الثمر ما علا كان أطيب [١]، يقول أبو حيان: "وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماء إلى علو شأنها"[٢]، " و(جعل) تعبير يفيد أنهم ستروا ما تراءى من الحق في مرأى عقولهم " [٣]، كما أن التعبير بـ(جعل) الذي هو لفظ عام أشمل من الفعل (فعل، وعمل)، فدلالاته تتسع لكافة أمورهم وشئونهم في أن الله جعلها سافلة لا علو لها ولا رفعة .

وعبر عن الكافرين بالاسم الموصول زائدا صفة الكفر (الذين كفروا)؛ زيادة للتعريف بهم وتحقيرا لشأنهم، وإقامة للحجة عليهم، وإثبات الحقد عليهم؛ وتهديدا لهم؛ كونهم افتعلوا العصبية وكانوا سببا في إيقاد هذه الحمية البغيضة في قلوبهم، وفي الجدول في إعراب القرآن الكريم " في هذه الآية الكريمة لطيفة معنوية رائعة، وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، باين بين الفاعلين، إذ فاعل جعل هو الكفار، وفاعل أنزل هو الله (تعالى)، وبين المفعولين، تلك حمية، وهذه سكينة، وبين الإضافتين أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى الله (تعالى)، وبين الفعل (جعل)، و(أنزل)، فالحمية مجعولة في الحال، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها، والحمية قبيحة مذمومة في نفسها، وازدادت قبحا بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينة حسنة في نفسها، وازدادت حسنا بإضافتها إلى الله تعالى. والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة، تقول: أكرمني زيد، فأكرمته، فدلّت على المجازاة للمقابلة"[٤].

وأسلوب التكرار نلحظه في تكرار لفظ السكينة في الآيات الست (بصيغها التي بيناها، وعللناها سابقا)، وكل سياق تأتي فيه يشع فيه الطمأنينة، والهدوء، على الرسول(صلوات ربي وسلامه عليه)، وعلى المؤمنين، كما نجد تكرار

---

(١) محمد توفيق محمد سعد، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، ص١٠٨.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٢٤٦.

(٣) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر،ج٧، تح: عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، ١٩٩٥م، ص ٢١٠.

(٤) صافي، محمود بن عبد الرحيم، الجدول في إعراب القرآن الكريم، ج٢٦، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، دمشق، ط١٤١٨،٤هـ، ص٢٦٧.

(إذ)، وهي ظرف زمان للماضي تكون مضافة إلى جملة في سياق الآية، فقد تكررت ثلاث مرات في قوله (تعالى): (إذ أخرجه الذين كفروا، إذ هما في الغار، إذ يقول له صاحبه لا تحزن)، وذكرها بهذه الصيغة المكررة يفيد أن كل مرة تذكر فيها أنها بيان لشيء تريد تبيينه في كل مرة، فقوله: (إذ أخرجه) بيان وقت النصرة للرسول، وقوله: (إذ يقول لصاحبه)؛ بيان لتشخيص وقت القول، وقوله: (إذ هما في الغار) بيان للمكان الذي هما فيه، كما أن صيغة التكرار تفيد التأكيد على النصرة، كما تفيد تعداد أزمنة النصر وبيانها، كدليل على نصرة الرسول من قبل، كما أن (إذ) تختصر كثيرا من الأحداث، وتركز على الحدث الذي تريد التركيز عليه، كما في الآية .

كما نلحظ تكرار الفعل (أنزل) في كل آيات السكينة ماعدا الآية الأولى(آية التابوت) جاءت بالظرفية(فيه)، وفي تصوري أن استخدام الفعل (أنزل) مع السكينة ؛ ليبين لنا أنها منزلة من عند الله (سبحانه وتعالى)، وأنها منزلة من علو؛ ليبين شرفها وأهميتها وعظمتها، فلا تستطيع قوة أياً كانت من قهرها وغلبتها، وتكرار (جنود) في ثلاثة مواضع في قوله: (تعالى): (وأنزل جنودا لم تروها، وأيده بجنود لم تروها، ولله جنود السموات والأرض) الأولى في غزوة حنين، والثانية في الغار، والثالثة في صلح الحديبية، وتكرار كلمة (جنود) فيه إظهار لقوة الله سبحانه و(تعالى)، وأنه التصرف في الكون وأن كل من في الكون، وما فيه تحت سيطرته وحكمه، كما أن في تكرارها بيان للمؤمنين أن معهم من يساندهم، ويساعدهم في جهادهم؛ امتثالا وطاعة لربهم فيطمئنوا، كذلك فيه بيان أنه يستطيع نصرة نبيه بغيرهم لو أراد ولذلك عليهم شكره سبحانه و(تعالى) كونه اختارهم من بين جنوده لنصرته، وفي التكرار تأكيد للانتقام من كل من يخالف أوامر الله ويحارب أولياءه

كما أن في التنكير بيان كثرتها .

وأسلوب النهي في قول رسول الله(صلوات ربي عليه) لصاحبه أبي بكر(رضي الله عنه) (**لاَ تَحْزَنْ**) بلا الناهية + الفعل المضارع؛ ليعمق الثقة ويقويها في قلب الصديق (رضي الله عنه)؛ ذلك أن منشأ خوفه كان على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أن يروه ويمسكوا به، ولهذا نجد هذا الأسلوب من رسول الله بنبرة قويه هادرة تعكس ثقته بالله، وتطمينه لقلب صاحبه، وكان لابد

في نطقها من الصوت الجهوري الواضح ذات النبرة العالية الواثقة بربها، وكذلك حتى نفرق بين (لا) النافية ذات الصوت المنخفض وبينها بصوتها الواضح والجهوري .

الخاتمة

يختم البحثُ مادته العلمية بتسجيل ما خلص إليه من نتائج علمية في هذه دراسة آيات السكينة كالآتي:

١ـ الحضور الأبرز لحروف كلمة (السكينة)؛ إذ نلحظ حضور الألف(٨٨) مرة، يليه حرف اللام (٦٦) مرة، ثم حرف النون(٤٧) مرة، وحرف الياء(٣٩) مرة، وحرف الهاء(٣٩)، وهذا الحضور يتناسب مع السكينة، وجوها المفعم بالهدوء، والاطمئنان المليئة به، وما فيها من رحمات تتنزل على الرسول (صلوات ربي وسلامه عليه)، وعلى المؤمنين،

٢ـ الحضور الأبرز للأسماء في الآيات؛ إذ بلغ ذكرها(٨٥) مرة يليها الحروف إذ ذكرت(٨٠) مرة، ثم الأفعال(٣٢) مرة، وهذا الحضور؛ لمقاصد بينها البحث.

٣ـ الحضور الأبرز لصوتي الإدغام، والإخفاء؛ فقد ذكر كل منهما (٨) يليهما الإظهار(٤) مرات، ولا وجود للإقلاب في الآيات، انسجاما مع السكينة، وليتفق الصوت التجويدي مع معناه في الآيات، واستخدم البيان القرآني أساليب بيانية، (كالاستعارة، والتكرار، والعدول، والتقديم والخير، وأسلوب القصر، والمقابلة، والتفصيل بعد الاستيفاء)؛ لإيصال المعنى المراد للمتلقي.

ويوصي البحث بدراسة، القرآن الكريم دراسة موضوعية؛ لبيان الإعجاز الرباني فيه، واستكشاف معانيه، وجمال بيانه .

مصادر البحث ومراجعه

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: الكتب:

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، القاموس المحيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط١، د. ت.
٢. ابن فارس، أحمد بن الحسين، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م.
٣. أحمد أبو زيد، التناسب البياني دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٢م.
٤. الألوسي، شهاب الدين محمود ابن عبدالله، روح المعاني، ج١٣، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٥ه.
٥. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر،ج٧، تح: عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، ١٩٩٥م.
٦. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥ه.
٧. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج١، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ط٢، د. ت.
٨. حمدي بخيت عمران، المفيد في علم التجويد، الأكاديمية الحديثة لكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
٩. الخولي، محمد علي، الأصوات اللغوية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان،١٩٩٠م.
١٠. الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد، الإدغام الكبير في القرآن، عالم الكتب للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٨م.
١١. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، د.ط،١٩٨٠م.
١٢. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة ، بيروت، د. ط، ١٩٦٦م.
١٣. السامرائي، فاضل صالح، لمسات بيانية، الحلقة١٢٢.

١٤. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، ج١، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، د. ت.
١٥. الشعراوي، محمد متولي، خواطر الشعراوي.ج١، مطابع أخبار اليوم، د. ط، ١٩٩١م.
١٦. صافي، محمود بن عبد الرحيم، الجدول في إعراب القرآن الكريم، ج٢٦، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، دمشق، ط٤، ١٤١٨ه.
١٧. ابن عاشور، محمد بن الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير،ج١٠، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.
١٨. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، الفروق اللغوية. تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم للثقافة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٧٩م
١٩. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن،ج١٦، تح: أحمد البردوني، إبراهيم طفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٣م.
٢٠. محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، دار التضامن للطباعة، ط٢، ١٩٨٠ م.
٢١. محمد توفيق، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، القاهرة، ط١،١٤٢٢ه.
٢٢. المرادي، ابن أم قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، ج١، تح: د فخر الدين قيادة، ومحمد نديم فاضل، حلب، ط١، ١٩٧٣م.
٢٣. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار(صادر)، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٢٤. موقع الهدى، لمسات بيانية في سورة الفتح، ج١، الخميس، أكتوبر، ٢٠٠٩م،
٢٥. ميسة، محمد الصغير، جماليات الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٢م.
٢٦. هشام، أبو محمد عبدالله جمال الدين، مغني اللبيب، ج١، تح: محي الدين عبد الحميد، د، ت، د ط.